

حقيقة خلق الحياء وأثره في بناء الفرد والمجتمع

د. سامي عفيفي حجازي (*)

من الأخلاق التي حث عليها الدين ، ودعت إليها السنة المطهرة خلق الحياء .

فما مفهوم الحياء ؟ وما حقيقته ؟ وما شعبه ، وما هي فضائله ؟

مفهوم الحياء :

الحياء: خلق طيب، ومفهومه يتلخص في التوبة والحشمة (١) ، وحقيقة الحياء كما ذكره العلماء : خلق يبعث على ترك القبيح ويمنع من التقصير في حق ذي الحق (٢) .

الحياء علامة صادقة على طبيعة الإنسان : فهو يكشف عن قيمة إيمانية ومقدار أدبه، وعندما يُرى الإنسان يتحرج من فعل ما لا ينبغي، أو ترى حُمره الخجل تصبغ وجهه إذا بدر منه ما لا يليق؛ فاعلم أنه حي النفس نقي المعدن ، زكي العنصر . وعندما يُرى الإنسان بأنه لا يبالي ما يأخذ أو يترك فهو أمرؤ لا خير فيه ، وليس له من الحياء وازع يعصمه عن اقتراف الآثام وارتكاب الدنيايا .

(*) أستاذ العقيدة والفلسفة - كلية الأصول الدينية - جامعة الأزهر

ولذا وصى الإسلام أبناءه بالحياء، وجعل هذا الخلق السامي من أبرز ما يتميز به المسلم.

إن الرجل الذي يخجل من الظهور برذيلة لا تزال فيه بقية من خير، والرجل الذي يطلب الظهور بالفضيلة لا تزال فيه بقية من شر، لأن الإنسان ينبغي أن يخجل من نفسه كما يخجل من الناس . فإذا كره أن يروه على نقیصة فليكره أن يرى نفسه على مثلها ، إلا إذا حسب نفسه أحقر من أن يُستحى منها.

ومن هنا كان الحياء شرطاً من شروط الفعل الخلقي يبعث على ترك القبيح، ويمنع من التقصير في حق صاحب الحق . ولذا يعرفه صاحب كتاب التعريفات فيقول :

الحياء : انقباض النفس في شيء ، وتركه حذراً عن اللوم فيه وهو نوعان :

الأول : حياء نفساني ، وهو الذي خلقه الله تعالى في النفوس كلها، كالحياء من كشف العورة .

والثاني : حياء إيماني وهو ما يمنع المؤمن من فعل المعاصي خوفاً من الله تعالى (٣) . كما قال الراغب الأصفهاني : الحياء : انقباض النفس عن القبانح وتركها (٤) .

فهو خلق يعتري وجه الإنسان عند فعل ما يتوقع كراهيته أو ما يكون تركه خيراً من فعله (٥) .

ولذا وردت النصوص الكثيرة والمتعددة التي تدفع وتحض على خلق الحياء كما قال الرسول ﷺ "الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء من الإيمان" (٦) .

وفي رواية الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق ، "والحياء شعبة من الإيمان" رواه مسلم في كتاب الإيمان .

و "البضع" بكسر الباء - كناية عن عدد مبهم وغير معلوم لا يقل عن ثلاثة ولا يصل إلى عشرة . ويستعمل مفردًا . نحو : بضع سنين، ومركبًا . نحو : بضعة عشر، ومعطوفاً كما هنا .

و "الشعبة" بضم الشين : هي : الغصن والطرف ويطلق على الطائفة من الشيء، والمراد منها : فروع الإيمان من أعمال الجوارح وأحوال القلوب دون الأصول الاعتقادية .

والكلام في الحديث من باب الإخبار عن الكل بأجزائه، لأن الكل هو جملة تلك الأجزاء لا يختلفان إلا بالإجمال والتفصيل .

ومدلول الشعب يمثل لنا الإيمان . وأنه أصلاً راسخاً في القلب رسوخ الأشجار في منابتها وعلى جوانبه تتفرع الأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة كما تتشعب الأغصان على جذوع الأشجار .

فأفضلها قول : "لا إله إلا الله" .

وهي أعظم تلك الخصال كلها، لأنه إن كان قولاً نفسيًا ، فهو أصل الإيمان المتغين الذي لا يصح عند الله شيء من الشعب إلا به، وإن كان قولاً باللسان فهو ترجمان هذا الأصل الذي لا يصح شيء منها بدونه .

"وأدناها إمطة الأذى عن الطريق" :

الإمالة : الإزالة والتتحية . والأذى : مصدر سمي به كل ما يؤذي والمراد به في الحديث كل ما يوجد في الطريق من حجر أو شوك ..

وإنما كانت تتحية هذه الأشياء أدنى شعب الإيمان لأنها دفع أقل ألم يتوقع عروضة لأحد المسلمين ولو على سبيل الاحتمال . وفيما بين أعلى الشعب وأدناها مراتب كثيرة من معاملة الحق ومجاملة الخلق بين واجب ومندوب . وقد اكتفى النبي ببيان شعبة واحدة منها لو حُققَت على وجهها لاستتبعَت سائر الشعب إذ فيها النازع والدافع إلى كل خير والوازع عن كل شر، ألا وهي الحياء . قال ﷺ : "والحياء شعبة من الإيمان" .

الحياء . أو الاستحياء : هو انفعال نفساني يقتضي الانقباض عن فعل ما يُعاب عليه الإنسان أو يُذم كما تبين فيما تقدم .

والسؤال الذي يقتضي الجواب . هل الحياء يختلف عن الخوف ؟

نعم الحياء يختلف عن الخوف في منشئه وباعثه وإن اتحد أثرهما وهو الكف عن الفعل والانزجار، فالحيوان يخاف ولا يستحي، وإنما يستحي الإنسان لما وهبه الله من لطف الحس وقوة الشعور بمواقع العيب والذم . فمن حُرِم الحياء فقد حُرِم خاصة من الخصائص الإنسانية . وهذا ما بينه قول الرسول ﷺ : "إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستحي فاصنع ما شئت" . وهنا قد يقول قائل : ما الفعل الذي يتوقع ذمه ؟

الفعل الذي يُتوقع ذمه إما أن يكون الذم له من جهة العقل كفعل المجانين الذين فقدوا العقل . أو من جهة العرف كفعل السفهاء أو من جهة الشرع كفعل الفساق والمستهزئين . وكل ما هو مذموم في العقل مذموم في العرف والشرع.

والذي نسميه حياءً ونعده من شعب الإيمان هو الانقباض عما يعد عيباً في نظر الشارع وإن لم يعده الناس عيباً ، فمن استحيا أن يواجه العظماء أو الأصدقاء بالحق فترك الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر إجلالاً لهم أو استبقاء لمودتهم إن سُمِّي حياً عرفاً لا يُسمى حياءً شرعاً بل يُسمى جبّاراً ضعيفاً .

وربما اشتبه الأمر على بعض الناس فسموا ذلك كله حياءً وقسموه إلى المحمود والمذموم ولكن الحياء في لسان الشرع غير منقسم بل هو خير كله ولا يأتي إلا بخير . وإذا كان الحق لله أو للخلق ، وجب أن يطالب به ولا يخشى لومة لائم فإن من تساهل في حقوق ربه أو حقوق من له ولا يته من أهل أو وطن أو حق غائب من المسلمين لا يُقال إنه تسامح في حقه بل يقال إنه فرط في واجبه !! .

وفي هذا المقام قد يقول قائل : وقفنا على أن الحياء خلق وغريزة في النفس فكيف يجعل من شعب الإيمان والتكاليف الشرعية ؟

أجاب عنه أئمة العلم : بأن الكلام على التشبيه والأخبار .

والمعنى : أن الحياء يمنع من ارتكاب القبيح كما أن الإيمان يمنع من ذلك فسمي إيماناً مجازاً . وهذا قول الإمام ابن قتيبة .

وأجاب غيره : بأن الحياء منه خلق وتخلق أي أن منه غريزياً مكتسباً . ودخول المكتسب تحت التكليف واضح لأنه فعل اختياري، ولما كانت الغرائز ليست راسخة في الإنسان رسوخها في الحيوان، بل هي خاضعة للاختيار في تهذيبها وتنميتها فمن كان حياءً بغريزته لزمه لضبط غريزة الحياء عنده على

ميزان الشرع أن يتعلم ما يُحمَدُ شرعًا وما يُذَمُّ ، وأن يأخذ نفسه بالكف عن المذموم الشرعي والعمل بالمحمود الشرعي حتى يصير الحياء الشرعي ملكة له، فيدخل في شعب الإيمان بهذا الوجه .

حيث يقول المصطفى ﷺ : "لكل دين خلق وخلق الإسلام الحياء" (٧).

ومن هنا جعل الإسلام قيمة الحياء سمة من السمات المقومة للإيمان والمتممة له كما في الحديث السابق وأن الحياء شعبة من الإيمان، كما ربط الإسلام أيضًا بين الحياء وبين طرق الخير كلها، وهذا مصدر من مصادر السعادة والرضوان الذي ضل عنه المعرضون وجافوا طريق الفطرة والتوحيد ومصدق هذا قول الرسول الحياء خير كله" ، ونلمس هذا المعنى في موضوع آخر يقرر وما كان الحياء في شيء قط إلى زانه" (٨) .

ومن كل ما تقدم يتضح أن الخير والشر معان كامنة في النفوس بالفطرة، وهي منح إلهية والإنسان مطالب من الله بأن يخرج ما أودعه خالقه فيه من سجايا صالحة فإذا استطاع ذلك كان متحلّيًا بالحياء، وهذا يكون لمن تيقظ بالإيمان، ولذا كان الخلق متفاوتين في مدى قدرتهم على اكتساب الخير أو الابتعاد عن الشر، لما رُكِبَ فيهم من السجايا التي هي فعل الخالق، واستخراجه يكسف المخلوق فكذا الآداب منبعها السجايا الصالحة والمنح الإلهية (٩) .

كما قال الشاعر :

لا تسأل المرء عن خلّاقه في وجهه شاهد من الخير

فسمة الخير : الدعة والحياء .

وسمة الشر : الفجور والبذاء .

ولذا قال رسول الله الحياء من الإيمان والإيمان في الجنة، والبذاء من الجفاء والجفاء في النار (١٠) .

ونلمس هذا أيضاً في قول الرسول الحياء والإيمان قرناء جميعاً، فإذا رُفِعَ أحدهما رُفِعَ الآخر .

ولذا فما أشد مخالفة الفتاة الخارجة عن شرع الله وتظن أن الخلاعة كمال ومدنية وهو عين التخلف والبعد عن الحق، في دائرة المخالفة وتخالف الفطرة التي فطرها الله عليها فيحدث لها التناقض وتظهر ما حرم الله تعالى وتخالف شرعه حتى تفقد دوائر بناء الدين في أقرب شيء إليها وهي نفسها التي بين جنبتيها وبالتالي تفقد رضا الله عز وجل وهو الأساس الذي تتطلع إليه كل نفس مؤمنة ومن هنا كان خلق الحياء هو الاعتدال في شرع الله تعالى قال تعالى :

{فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ} (١١) .

ومعنى ذلك أن المرأة العفيفة تمشي على استحياء بعيدة عن التبذل والتبرج والإغواء .

جاءته على خلق كريم لتنتهي إليه دعوة في أوجز عبارة وأدق تعبير فمع الحياء إبانة وفصاحة وطهارة وذلك كذلك من إحياء الفطرة النقية السليمة المستقيمة فالفتاة المستقيمة القويمة تستحي بفطرتها لقاء الرجال والحديث معهم.

ولكنها لتفتها بطهارتها واستقامتها لا تضطرب الاضطراب الذي يطمع ويغري ويهيج ، وإنما تتحدث في وضوح بالقدر المطلوب (١٢) .

وفي الأثر قيل لأعرابية كانت عفيفة ثم سقطت في الرذيلة، ما الذي أودي بك إلى هذه الهاوية ومزق ثوب العفاف والطهر والفضيلة منك ؟ فقالت : قرب الوساد وكثرة السواد .

ولهذا أوجب الإسلام غض البصر قال تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ (١٣) .

وفي هذا ما يوقفنا على أثر الأخلاق الإسلامية في السلوك وأن قيمة المرأة في تمسكها بأوامر الدين : وعليها أن تتعلم وتنال من العلم ما يصل بها إلى أعلى درجات الفقه والتفقه في أمور دينها ودنياها، ولكن بدون أن تقع في المحذور بالكشف عن زينتها وهتك سترها المادي والروحي والخلقي، حتى لا تعرض نفسها في سوق المهانة والمذلة بسلوك الطرق غير المستقيمة والتمرد على حدود الشريعة (١٤) ، وإنما تحرص على أن تكون في دائرتي التحلي بما أمر الله به والتخلي عما نهى الله عنه وهذا لا يكون إلا بالحياء .

وفي كل ما تقدم ما يوقفنا على عظمة الحياء وأهميته في الخلق والسلوك الذي به تتحقق السعادة للفرد والمجتمع، وهذا يدعونا لمعرفة منزلته في شرع الله تعالى .

الحياء خلق يمنع صاحبه من الوقوع في المعاصي ، كما يمنعه من التقاعس عن أداء الواجبات والفضائل (١٥) .

وعلى هذا تتضح قيمة الحياء في مفهوم شرع الله تعالى كما يقول – صاحب دراسة أدب الدنيا والدين – "إن الدين أقوى قاعدة في صلاح الدنيا واستقامتها، وأجدى الأمور نفعاً في انتظامها وسلامتها، ولذلك لم يخل الله تعالى خلقه مذكراً عقلاء من تكليف شرع واعتقاد دين ينقادون لحكمه لنلا تختلف بينهم الآراء ، ويستسلمون لأمره فلا تتصرف بهم الأهواء" (١٦) .

وهذا يعني تهذيب الظاهرة والباطن وفقاً للتوجيهات الشرعية، وإذا ما تهذب باطن الإنسان وظهرت آثار ذلك في سلوكه، كان حينئذ متحلياً بالخلق والسلوك الإسلامي القائم على تهذيب وتنقية الظاهر والباطن، ولذا كان خلق الحياء ميراث الأنبياء كما روي الإمام البخاري بسنده عن أبي مسعود قال : قال النبي ﷺ : "إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ما شئت" .

وفي هذا المقام يقول : صاحب دراسة الأخلاق في القرآن الكريم "إن الحياء هو القيمة المركزية في الأخلاق الإسلامية، وليس مجرد مانع أو باعث على الخلق والسلوك" (١٧) ، وما ذلك إلا لأن أوامر الشريعة تنقسم في جملتها إلى ما يتعلق بأقوال ظاهرة كالصوم والصلاة وإلى ما يتعلق بالنفس كالإخلاص والحب في الله والبغض فيه والخوف من وعيد الله تعالى والأمل في مثوبته ورضوانه .

وكذلك النواهي تنقسم في جملتها إلى ما يتعلق بظاهر الأقوال والأفعال كالنهى عن القتل بغير حق والسرقه والغيبه والنميمة .. وإلى ما يتعلق بأعماق النفس أو القلب كالنهى عن الكبر والعجب والحق، والتعلق بزخارف الدنيا وأهواء النفس . وفوق هذا وذاك فإن ما يتلبس به المسلم من الطاعات الظاهرة

فكر وإبداع

المتعلقة بالأقوال والأفعال لا يستقيم به المسلم من الطاعات الظاهرة المتعلقة بالأقوال والأفعال لا يستقيم على حالة من القبول عند الله تعالى ما لم ينهض ويرتكز على تلك الطاعات الأخرى المتعلقة بطوايا النفس والقلب (١٨) .

إن الحياء قوة تعتري النفس وتمنع من اقتراف المعاصي وتحفظ من التردّي في الرذائل، ليس هذا فحسب بل وتبعث على العمل الفاضل، ولذا كان الحياء دليل نضج الحس الخلقي الذي يميز بين الخير والشر، وبالتالي يمنع من اقتراف الشر ويبعث على الخير .

ومن هنا دعا أئمة الخلق والسلوك إلى التأكيد على أهمية خلق الحياء وأنه ينشأ لدى المسلم الذي يتقي الله تبارك وتعالى عن طريقين :

الأول : رؤية الآلاء ، أي نعم الله تبارك وتعالى التي أسبغها على الإنسان ظاهره وباطنه .

والثاني : رؤية التقصير وذلك بمعنى شعور المرء بأنه لا يوفي المنعم حقه في الشكر على ما أنعم به عليه والحياء يدور حول ثلاث شعب :

أولها : الحياء من الله عز وجل ، ويكون بما كلفنا به من امتثال أمر واجتناب نهي، ورضا بقضاء وقدر، وأن نراقب الله في حركاتنا وسكناتنا، في خلوتنا وجلوتنا، ومصادق هذا قول الرسول ﷺ لأحد أصحابه أوصيك أن تستحي من الله تعالى كما تستحي من الرجل الصالح من قومك .

روي الترمذي بسنده عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله استحيوا من الله حق الحياء . قلنا : يا نبي الله إنا نستحي والحمد لله . قال : ليس ذاك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء، أن تحفظ الرأس وما وعى وتحفظ البطن

وما حوى ، وتتذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا وأثر الآخرة على الأولى . فمن فعل ذلك فقد استحي من الله حق الحياء .

لقد وضع الرسول ﷺ حقيقة الحياء في كلمته الجامعة وأنه يشمل الظاهر والباطن للإنسان .

وعن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أنه قال : دخلت على النبي ﷺ فوجدته يبكي فقلت : يا رسول الله ما يبكيك ؟ قال أخبرني جبريل - عليه السلام - "أن الله يستحي من عبد يشيب في الإسلام أن يعذبه . أفلا يستحي أن يذنب وقد شاب في الإسلام" .

ثانيهما : الحياء من الناس . ويكون بمراعاة حقوقهم وكف الأذى عنهم، وترك مجاهدتهم بالقبيح .

ثالثها : حياء المرء من نفسه ، ويكون بالعفة واتقاء الريب والتورع عن الشبهات واستشعار عظمة الله تعالى وخشيته في جميع الأوقات وألا يعمل في السر عملاً يستحي منه في العلانية . ولذا ورد في الأثر "ليكن استحيائك من نفسك أكثر من استحيائك من غيرك . فالإنثم ما حك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس .

وقد دلت الأسانيد والأحاديث على فضائل الحياء ومنها :

أولاً : أنه صفة من صفات الرسول ﷺ .

فقد روي البخاري بسنده عن أبي سعيد الخدري قال : "كان النبي ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها ، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه" (١٩) .

ثانيًا : أن خلق الحياء سمة الخير، لأنه لا يأتي إلى بخير :

فقد روى البخاري بسنده عن عمران بن حصين قال : قال النبي ﷺ "الحياء لا يأتي إلا بخير" (٢٠) وفي رواية "الحياء خير كله" قال : أو قال : "الحياء كله خير" (٢١) .

فالحياء يظهر الخير من الإنسان بالاستقامة ويضيء الوجه فحياة الوجه بالحياء كما أن حياة الزرع بالماء .

ثالثًا : أن خلق الحياء زينة فطوبى لمن يتزين به .

فقد روى الترمذي بسنده عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : "ما كان الفحش في شيء إلا شانه، وما كان الحياء في شيء إلا زانه" .

فلو قدر أن يكون الفحش أو الحياء في جماد لزانه أو شانه فكيف بالإنسان" .

نسأل الله تعالى أن يجعلنا بخلق الحياء الذي هو دليل على الإيمان والذي به تتحقق السعادة في الدنيا والآخرة .

قائمة المراجع :

- ١- راجع لسان العرب لابن منظور مادة الحياء ، ج ٢ ، دار المعارف بمصر .
- ٢- الإمام النووي رياض الصالحين .

- ٣- راجع السيد الشريف الجرجاني، كتاب التعريفات، ص ٩٤، ط. بيروت، ١٩٨٣ م.
- ٤- راجع المفردات للراغب الأصفهاني .
- ٥- راجع القاضي عياض الوفا بأحوال المصطفى ﷺ ج ١، ص ٦٨، ط. الحلبي، ١٩٥٠ م.
- ٦- راجع صحيح الإمام البخاري كتاب الإيمان باب أسرار الإيمان .
- ٧- رواه الإمام مسلم في كتاب الإيمان، ص ٦٤، وكذا في مسند الإمام أحمد.
- ٨- رواه الإمام أحمد بن حنبل ج ٣، ص ١٦٥، وابن ماجه كتاب الزهد باب الحياء ص ١٣٩٩ .
- ٩- راجع عوارف المعارف للسهرارودي .
- ١٠- رواه الشيخان وراجع فيض القدير ، ج ٣، ص ٢٤٧ .
- ١١- سورة القصص : الآية ٢٥
- ١٢- راجع العلامة سيد قطب في ظلال القرآن ج ٦، ص ٣٣٧، ط السابعة، ١٩٧١ م.
- ١٣- سورة النور : الآية ٣١ .
- ١٤- راجع الأستاذ الدكتور . الحسيني عبد المجيد هاشم - رحمه الله - كتاب الدين القيم ج ١، ص ١٥٦، ط مجمع البحوث الإسلامية ، ١٩٨١ م .
- ١٥- راجع الإمام النووي ، رياض الصالحين ، ص ٢٢٧، ط ١٩٨٣ م .

- ١٦- الماوردي أدب الدنيا والدين، ج ٢، ص ٢٤٥، ط دار الشعب، ١٩٨٠م.
- ١٧- راجع د. محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق في القرآن الكريم، ص ٥٣١، ط السابعة، بيروت، ١٩٨٧م.
- ١٨- راجع السلوك وتنمية وعي الأمة للدكتور سامي عفيفي حجازي، ص ١٩.
- ١٩- راجع صحيح الإمام البخاري كتاب الأدب ج ١، ص ٥١٣، وصحيح الإمام مسلم كتاب الفضائل، ج ٤، ص ١٨٠٩.
- ٢٠- راجع صحيح الإمام البخاري والمرجع السابق للإمام مسلم.
- ٢١- راجع صحيح الإمام مسلم كتاب الإيمان، ج ١، ص ١٤.